الفصل الأول

حياته وثقافته

أين يأسى؟ لقد مضى
ومضت مثله المنى
فحياتى كما ترى
لا ظلام ولا سنا
كل ما كان لم يكن
وأنا لم أعد أنا

كامل الشناوى

obeikan.com

obeikan.com

شاعر الحب والحرمان

كان كامل الشناوى شاعراً رومانسياً رقيقاً، غنى للحب والجمال أبدع أغاريده التى انتزعها من عذابات قلبه وأحزان روحه، فرغم جراحه ولوعته وأحزانه القاتمة الحادة، إلا أنه ظل يغنى للحب ويهتف للجمال... وهكذا كان شاعراً صادقاً، فأفصح عن أحاسيسه ومشاعره بصراحة وصدق.

كان شعر كامل الشناوى يتسم بالرقة والعذوبة والطلاوة، وهذه الخصائص والسمات كان لها جذور ضاربة فى النشأه والبيئة ومصادر الثقافة، فهو ابن بيئته الصادق، فقد كان منذ مطالع صباه شاعر الحب والشك والحرمان.

■ ولد فى قرية «نوسا البحر» القريبة من مدينة المنصورة، مهد الحب والجمال فى ٧ ديسمبر عام ١٩٠٨ وكان أبوه - الشيخ سعيد الشناوى - يعمل بوظيفة نائب المحكمة الشرعية العليا، وكان من مؤيدى الزعيم الوطنى مصطفى كامل ولذا سماه "مصطفى كامل" تيمنا باسم الزعيم الوطنى الكبير.

وكانت أمه قد نذرت وليدها للأزهر الشريف ونسيت الأسرة النذر، فعندما كبر الطفل الصغير أدخلوه المدرسة الإبتدائية ولكنه مرض، فأخرجوه من المدرسة الابتدائية وأدخلوه الأزهر، وفى الأزهر بدأ يتجه لقراءة روائع الشعر القديم بنهم وشغف ولكن الدراسة لم تكن كلها شعراً وأدباً، فاستغرقه الأدب والشعر وأنساه ذلك دراسته ولم يواصل دراسته بالأزهر واعتكف بمنزله يقرأ ما تهفو إليه نفسه من دواوين الشعر لفحول

الشعراء القدامى والمحدثين، فقرأ دواوين المتنبى والشريف الرضى وأبى نواس وعمر بن أبى ربيعه والبحترى وخليل مطران وأحمد شوقى وغيرهم، وحفظ من شعرهم ألوف الأبيات.

وكان أشد ما يجذبه فى الشعر موسيقيته وعمق معانيه... وإن كان يميل لشعر الحب والغزل وشعر التأمل الفلسفى الحزين.

وفى تلك الحقبة بعد تركه الأزهر كان يقطن فى حجرة بحى السيدة زينب كان يجتمع فيها بشباب الأدباء وتدور المصاولات والمساجلات الأدبية وكان من روادها الشعراء: صالح جودت ومأمون الشناوى وعبد الحميد الديب وغيرهم. وفى نفس الوقت بدأ يتعلم اللغة الفرنسية ليواصل دراسته بباريس ولكن الظروف أبت إلا أن يبقى فى مصر.

***

وبدأ كامل الشناوى حياته الصحفية مصححاً بجريدة "كوكب الشرق" بمرتب لا يتجاوز بضعة جنيهات، ثم ما لبث ان انتقل إلى صحيفة "الوادى" وكان يرأس تحريرها الدكتور طه حسين وعلى صفاحتها صال قلمه وجال ونشر فيها أجمل أشعاره وأرقها وخاض على صفاحتها أعنف معاركه الأدبية مع جماعة أبوللو، وبعد ذلك انتقل للكتابة فى صحف مختلفة منها الأهرام والأخبار والجمهورية حتى أصبح من ألمع رجال الصحافة والأدب فى العالم العربى.

الحب الأول

فى بدايه حياته الصحفية كان هناك حب كبير فى حياته ألهب شاعريته... كان ذلك عام ١٩٣٠ وهو فى حوالى العشرين من عمره ولم يكن قد أتم دراسته فى الأزهر بعام واحد وذهب كامل الشناوى الى أحد المتفقهين

فى اللغة الفرنسية ليأخذ دروساً على يديه... وفى منزله رآها... كانت ابنته...

أعجبه فيها تكوينها الإنسانى قبل تكوينها الجسمانى... كانت رائعة الجمال تختلط فيها الملامح المصرية والأوربية.... وكانت رقيقة الملامح ليس فيها ما يثير الصخب إلا ذكاؤها الحاد وجمالها الأكثر حدة.... كانت شقراء... فى عينيها السوداوين كل الحنان وعلى شفتيها بسمة أمل وبين خصلات شعرها المتهدل تكمن أسرار كأسرار الليل المجهول !

وجد فيها كامل الشناوى ضالته المنشودة....

كان حباً روحياً رائعاً... علمته أن يحب الموسيقى الغربية وشرحت له أشعار موسيه وهوجو ولا مرتين بلثغة فرنسية كانت أحب إلى قلبه من أجمل السيمفونيات!

أحبها كامل بعنف وهام بها.... وألهبت شاعريته، فألهمته أجمل قصائد الحب والغزل... ولكن لظروف ما افترقا وملء قلبيهما الحسرة والمرارة....

وكانت صدمة عنيفة لكنه ظل يستوحى من الهجر والفراق معانى لونت شعره بطابع سوداوى حزين قاتم فيه الفرقة واليأس والأسى!

شاعر الحرمان والتساؤل

نشأ كامل منذ صغره محروماً شقياً حزيناً... لا أقصد الحرمان المادى بل الحرمان المعنوى الذى عذبه وأضناه، فقد كان ضخم الجسم، قليل الحظ من الوسامة، تتكالب على جسده مجموعة من الأمراض المختلفة.... وأمضى حياته فى قصة طويلة مضنية مع المرض والليل والكأس والمرأة. كان يقابل الحياة بصدر رحب وصفاء نفس وابتسامة عريضة رغم آلامها وصدماتها العنيفة. خاض عدة تجارب عاطفية كان نصيبه منها الحرمان والشقاء.

ومن العوامل التى جعلته يوغل فى حديث الحرمان والتشاؤم والحيرة قراءاته الكثيرة لفيلسوف التشاؤم والحزن والحرمان "أبي العلاء المعرى" فقد كان أول شاعر أثر فى شخصية شاعرنا وفى شعره، وأخذ عنه كامل نزعة التشاؤم ولكنه كان يسميها "نزعة التشاؤل".

وكان كامل يفرق من الموت ويتساءل كثيراً عن سره وعن غايه الحياة ومصير البشر مما يذكرنا بحيرة فيلسوف الرباعيات عمر الخيام وفلسفته المتسائلة!

وقد حاول الدفاع عن اتهامه بالتشاؤم والإغراق فى الحزن والسلبية، وكثرة تساؤلاته الفلسفية فقال:

"لا تتهمنى بالتشاؤم لأن بعض ألفاظى حزينة، وبعض تعبيراتى مقطبه الجبين".

"فما دام الموت يتعقب حياتنا، ومادمنا لا نعرف من نحن، فإن المجانين وحدهم هم الذين يضحكون للحياة، ويسمون ذلك تفاؤلا، لست متشائماً، ولست مجنوناً، ولكنى أحاول أن أكون صادقاً مع ما أشعر به، وما أفكر فيه".

وكان دائماً يتساءل لماذا خلقنا؟ وكيف؟ ولماذا نموت؟ وإلى أين المصير؟ وقد عكس حيرته وقلقه وأحزانه الروحية فى قصائده... يقول فى إحدى قصائده:

أنا فى الظل أصطلى ... لفحة النار والهجير

وضميرى يشدنى ... لهوى ما له مصير

وإلى أين؟ لا تسل ... فأنا أجهل المصير

وتبلغ ذروة حيرته وتساؤله وشكه وأحزان روحه فى قصيدة نلمح فيها حيرة الخيام... فيتساءل شاعرنا "من أنا؟":

يارب فيم خلقتنا نهب الضباب

فلا ظلام... ولا سنا

وندب فوق الأرض لا ندرى بها

وندب فوق الأرض لا تدرى بنا

أنا من أنا ؟ أنا من أكون ؟

وسيلة؟ أم غاية؟

أنا لست أعرف من أنا ؟

ومن الطريف أنه سئل ذات مرة:

«ما هى الأبيات التى تختارها لتصحبك فى رحلتك إلى العالم الآخر؟»

فأجاب: «إذا كان عندى وقت للاختيار فإنى سأختار قصيدتى "من أنا؟"».

ليس فيها شك... بل فيها تفكير والله يدعونا إلى أن نفكر!.

وكان يتشاءم من يوم ميلاده لأن وجوده مشكلة... وقد نظم قصيدة يرثى فيها نفسه فى استقبال عيد ميلاده، وقد نظمها فى الخمسينيات فى فترة كان يمر فيها بأزمة نفسية حادة، رأى نفسه وقد بدأ رأسه يشتعل شيباً، رغم أنه ظل حتى رحيله أسود الشعر لم يتسلل الشيب إلى رأسه وقد أصيب بصدمة عاطفية، فأحس بأنه ضائع فى الطريق الطويل الذى لا يعرف له بداية أو نهاية وهو طريق الحياة:

عدت يا يوم مولدى		عدت يا أيها الشقى

الصبا ضاع من يدى		وغزا الشيب مفرقى

ليت يا يوم مولدى		كنت يوماً بلا غد

* * *

ليت أنى من الأزل		لم أعش هذه الحياة

عشت فيها ولم أزل		جاهلاً أنها حياة

ليت أنى من الأزل		كنت روحا ولم أزل

أنا عـمـر بلا شـبـاب — وحـيـاة بلا ربيع
أشـتـرى الحب بالعـذاب — أشـتـريه فـمن يبـيع
أنا عـمـر بلا شـبـاب — أنا وهم أنا سـراب

* * *

شاعر الشك

كان كامل الشناوى كثير الشك والقلق بسبب أحزانه العميقة وإحساسه الحاد بالغربة الروحية والوحشة الطويلة، فكان يحاول تعويض ذلك بالمرح والفكاهة والنكتة اللاذعة!

تجلت فلسفة الشك عنده فى تجاربه مع المرأة...

وقد خاض عدة تجارب عاطفية. اقتنع بعدها أنه لن يستطيع الزواج.

وكان يحلو له أن يردد قول أبى العلاء المعرى:

هـذا جـنـاه أبـى عـلـىّ — ومـا جنيتُ على أحـد

وقد سئل عن ذلك مرة فحاول تبرير ذلك تبريراً فلسفياً، فقال: «أنا مشكلة» وليس من المعقول أن أتزوج وأتسبب فى خلق إنسان جديد منى، فكأننى بدلاً من أن أحل مشكلة نفسى، ألد للدنيا مشكلة جديدة".

ولكن السبب لم يكن هذا الاعتقاد الفلسفى فحسب، بل أنه كان يشعر بالألم والحرمان المعنوى، كما أن الصدمات العاطفية التى قابلته جعلته يزداد إيماناً برفضه للزواج... وظل هكذا حتى فاته سن الزواج، فأخذ يردد بحزن ومرارة قول فيلسوفه المفضل المعرى!

فلو سمح الزمان بها لضنت — ولو سمحت لضن بها الزمان

لقد كانت له تجارب خصبة عميقة فى دنيا الحب والعشق وخبر غدر المرأة وتلونها.

كان مشركاً فى الحب... خاض أكثر من تجربة وأحب أكثر من ملهمة وصدم أكثر من صدمة وقد أتاح الشرك فى الحب لشاعرنا فرصة التغلغل فى دراسة أهواء المرأة وأحلامها وفهم نفسيتها وطباعها المتقلبة وصدم بأكثر من تجربة اكتشف فيها غدرها وتلونها فتحول شعره إلى قيثارة شجية ترجع أناته الحزينة وأحلامه الباكية يبكى فيها مصارع حبه وتهاوى أحلامه وغدر من أحبهن وأخلص لهن الود والوفاء.

وكان يردد دائماً فى شعره ذكر «الرجل الآخر» فى حياة المرأة.. ويضعها فى قفص الاتهام ويدينها.....

وكانت قمة تجاربه مع المرأه والشك والمرارة تجربته مع "الحب الكبير" فى حياته... لقد ظل يبادلها عاطفة الحب سنوات طويلة حتى صدم عندما رأى بعينيه دليل غدرها وخداعها... ولكنها حاولت الدفاع عن نفسها ولكنه صرخ فى وجهها "لا تكذبى "وقدم لها دليل غدرها وخيانتها:

لاتكذبى..

إنى رأيتكما معا..

ودعى البكاء..

فقد كرهت الأدمعا

ما أهون الدمع الجسور

إذا جرى..

من عين كاذبة

فأنكر وادعى..

واشتعل صراع فى نفسه بين الضعف والاصرار بين العودة والإباء ولكنه صمم على الفراق، فحاول أن يردع قلبه عن العودة لها فيطمئنه بأنه كان قد صنع هذا التمثال الجميل الذى اكتشف أنه كان وهما:

كيف يا قلب ترتضي طعنة الغدر في خشوع ؟
وتدارى جحودها في رداء من الدموع
لست قلبي.. وإنما خنجر أنت في الضلوع

ثم يهيب بقلبه أن يرجع لصوابه لأنه أصبح فى حال من الهوان والذلة والألم بسبب غدرها مما يجعله يلفظها بعيداً، بعد أن حطمته وألقت به من الثريا إلى الثرى ومن القمة إلى السفح!

فيتوسل إلى قلبه أن ينساها فيروى له ما فعلته به:

أوتدرى ؟ بما جرى؟ أوتدرى ؟ دمي جرى
جذبتني من الذرى ورمت بي إلى الثرى
أخذت يقظتي، ولم تعطني هدأة الكرى

* * *

ويعود مرة أخرى إلى تبرير ضعفه وهوانه واستكانته واستسلامه لسطوة هواها رغم عذاب روحه بسبب غدرها وتلونها وخداعها وما أذاقته من ألوان الغدر والجحود، فيلقى التبعة على هذا القلب المتمرد عليه الذى يهفو لها ويحن إليها.. رغم إصراره على السلو والنسيان:

لست قلبي أنا إذن إنما أنت قلبها

ويثور شاعرنا على قلبه، فيحاول أن يضع كرامته فوق حبه وفوق حنينه ويحاول أن يرغم قلبه على النأى بعيداً عن أغلال العبودية وقيود الهوى:

عـــلام يـا قـلـب تـشـكـو   نقض الحـبـيـب عـهـوده

دع الـهـــــوان وحـطـم   أغــــلالـه وقـــيــــوده

ثم يستنزل عليها سخطه وغضبه فيقول لها:

كـونى الجـحـيم سـعـيـرا

فلن أكـــون وقـــوده !!

شاعر الحطام والضباب

صدم شاعرنا بعدة صدمات من المرأة وكان من نتاج ذلك أن أصبح كامل الشناوى شظايا روح وحطام قلب وبقايا نفس !

آه مـنـهــــــــــا..

أنـا لـم أدرك مـــــداها

آه مـــــــنـــــى..

هـى لـم تـدرك مـــــدايـا

حطمتنى مثلما حطمتها

فهى منى وأنا منها شظايا

ولا يرى أمامه بعد صدماته فيمن يحب الإ ظلال الشك وأطياف الضباب وحطام قلبه ويصبح كريشة فى محيط تعصف بها الرياح والهواء:

كـــهـــارب لـيـس يـدرى   مـن أيـن أو أيـن يمـضـي؟

شك ضـــبـــاب حـطـام   بـعـــضـي يمزق بعـــضـي

ويسميه أنيس منصور بعد وفاته بشاعر الشظايا!

وتبلغ بشاعرنا ذروة يأسه وأحزانه فيرى أن حياته قد أصبحت بلا

معنى وبلا لون أو طعم حتى أنه فقد الاحساس بالمكان والزمان!

أين يأسي ؟ لقد مضي ومضت مثله المني

فحياتي كما تري لا ظلام ولا سنا

كل ما كان لم يكن وأنا لم أعد أنا

وحاول شاعرنا أن ينسى قصة قلبه الحزين مع المرأة.. فلجأ إلى الليل يتخذ منه سميرا وأنيسا.. يسهره كله مع بقايا الذكريات ومع الكأس يدفن فيها أحزان روحه ويملأ حياته مرحا وضحكا عله ينسى أو يسلو.

وتمضى حياته وهو لا يخشى إلا من سكرات الموت أو سكرات الحياة:

"أستطيع أن أعانى الشقاء والعذاب والمرض. ليس فى الدنيا ما أفزع منه إلا اللحظة التى أعانى فيها سكرات الموت أو سكرات الحياة".

وفى سنواته الأخيرة تبدو لهفته الحارة للوصال مع ملهمته رغم ما أصابت قلبه من جراح الغدر وسهام الخديعة لأن المصباح كاد يجف!

"ليس فى حياتنا ماض ومستقبل.. حياتنا فترة واحدة هى الماضى".

"الأمس مضى واليوم يمضى والغد سيمضى"!

"تعالى ولا تترددى فلم يبق من عمرى ما يسمح بأن تترددى"!

ثم مضت رحلة شاعر الشك والحرمان مع المرض والليل والمرأة والقلم.

وتفاوتت قصته مع المرأة والمرض بين المد والجزر تبعاً لخفقات قلبه ووثبات شياطين شعره!

وأخيراً خبت الشعلة وانتهت قصة كامل الشناوى مع المرض والمرأة والليل والقلم فى ٣٠ نوفمبر عام ١٩٦٥ بعد أن قدم ذوب قلبه وأعصابه وروحه فى كتاباته التى انتزعها من عذابات قلبه وأحزان روحه!

وعندما صدر ديوانه الوحيد "لاتكذبى" سنة ١٩٦٤ كتب صديقه الشاعر صالح جودت قبل رحيل كامل الشناوى بشهور قليلة يقول[١]:

لا تحس، وأنت تقرأ هذا الكتاب الذى أحدثك عنه اليوم.. "لاتكذبى".. لكامل الشناوى، بأنك تقرأ شعراً، بقدر إحساسك بأنك تستمع إلى مجموعة من الأغنيات الحلوة...

حروف المطبعة تكاد تذوب أمام عينيك، لترسم مكانها علامات موسيقية... وعناوين القصائد تكاد تثقب الورق، لتطل من هذه الثقوب أعناق أم كلثوم وهى تدق على باب مصر... وعبد الوهاب وهو يترنم بالخطايا... وفريد الأطرش وهو ينشج بأنشودة "عدت يا يوم مولدى" ونجاة الصغيرة وهى تهمس لنفسها: لا تكذبى !.

هذا أول ديوان لكامل الشناوى، عاشق الكلمة المنغمة، فى الشعر والنثر سواء بسواء.

وفى هذا الديوان ٢٨ قصيدة، مالم يلحنه الملحنون منها، لحنه وقع الكلمة فى الأذن والقلب .

وكامل الشناوى شاعر مقل... ينظم الشعر منذ عهد أبو للو - أى منذ ٢٢ سنة - ومع هذا، فإن ديوانه هذا لا ينتظم أكثر من ٣٢٠ بيتا...هى كل ما نظمه فى حياته أعنى أنه ينظم الشعر بمعدل عشرة أبيات فى السنة..

وإذا عز علينا ألا يثرى كامل الشناوى شعر هذا الجيل بمزيد من نفحات روحه الشاعرة، فعزاؤنا أن الكم قد ضاع عند الشناوى لحساب الكيف.

فى هذا الديوان ٢٨ قصيدة، بعضها لا يجاوز البيتين وأكثرها - إذا

(١) مجلة الهلال/ شاعر أحب الخائنات/ عدد يناير ١٩٦٥.

استثنينا شبه الملحمة "جميلة" - لا يصل إلى العشرين بيتا، وأقل القليل منها يحاول أن يصل إلى الثلاثين أو الأربعين ومع هذا، فقد استطاع الشاعر - بهذه القلة - أن يقنع رواد الشعر الأصيل بأنه من طلائعهم .

واستطاع أيضا أن يخدع دعاة الشعر الجديد بأنه مترخص معهم، بحيلة بسيطة، هى أنه قطع قصائده فى المطبعة تقطيعا موسيقيا أو معنويا، فحسبوا أنه يطفف الكيل ويبخس الميزان ويظلم القافية، كما يفعلون خد مثلا مطلع أغنيته الأثيرة " لا تكذبى " لقد جاءت هكذا على ورق الديوان:

"لا تـــــكـــــــذبــــــى...
"أنـى رأيتـكـمــــــا مـــــعــــــا
"ودعـــــى الـــــبــــكــــاء
"فـــقـــد كـــرهت الأدمـــعــــا
"مــا أهون الدمع الجـــسور إذا جـــرى
"مـن عـــــيـــن كـــــــاذبـة
" فـــــــــأنــكـــر وادعـــى
"أنــى رأيـتــكـمـــــــــــــا
" أنـى ســـمـــعـــتـكـمـــا
"عـــــينـاك فى عــــيـنيـــه
" فى شـــفــتــيـــه
" فى كـــفــيـــه
" فى قـــدمــيـــه

obeikan.com

" ويداك ضـــــارعـــــتـــــان

" ترتعـــشـــان من لهف عليـــه "

من هذه الصورة، وبهذه الخدعة، ظن دعاة الشعر الجديد أن القصيدة من الشعر الجديد، فشطرة تخلص فى كلمة، وشطرة تمتط كاللولب، بينما القصيدة فى مبناها - وفى قرارة شاعرها وقرارة كل شاعر - سليمة وأصيلة، وهذا بناؤها الخليلى:

" لا تـــكـــذبـــى...

"أنى رأيتكمـــا مـــعـــا

"ودعـــى الـــبـــكـــاء

"فـــقـــد كـــرهت الأدمـــعـــا

"مـا أهون الدمع الجسور إذا جـرى

"من عـــيـــن كـــاذبـة

" فـــأنـكـر وادعـى

"أنى رأيـتـكـمـــا

" أنى سـمـعـتـكـمـا

"عـــيـــناك فى عـــيـــنيـــه

" فى شـــفـــتـــيـــه

" فى كـــفـــيـــه

" فى قـــدمـــيـــه

" ويداك ضـــارعـــتـــان

" ترتعـــشـــان من لهف عليـــه "

وهكذا ترى أن بناء القصيدة سليم من الوجهة الخليلية، فهى تعتمد على البحر ومجزوئه فى تفاصيل منتظمة، تضفى على الشعر طاقة موسيقية زاخرة، نجيزها كل الإجازة، ولا نرى فيها عدوانا على أصالة الشعر فنحن نبيح تلوين الشعر بالبحر ومجزوئه، ونبيح تسلسل البحور المختلفة فى القصيدة الواحدة مع التزام الروح الموسيقية، كما ينتقل المغنى من " البياتى " إلى " السيكا" على تحميلة من "الرصد" .

ونحن نجيز أيضا تنويع القافية، مادام هذا التنويع يسير فى جسد القصيدة كلها على نسق معروف .

معنى هذا أننا لسنا متزمتين فى التمسك بالشكل، ولا متعنتين فى جمود الحركة الموسيقية، ولكننا لا نريد أن نفتح أبواب الشعر على جميع مصاريعها لكل عاجز فى الموهبة والصنعة معا .

كل شعر كامل الشناوى - لو رسمناه على هذه الصورة الخليلية - فيما عدا قصيدة واحدة أو قصيدة ونصفا على الأكثر - حجة معنا لا علينا.

ومع هذا، فقد خدع الرسم المطبعى دعاة الشعر الجديد، فضموا هذا الديوان إلى حجتهم عن جهالة!.

* * *

وأبرز ظاهرة فى شعر هذا الديوان، أنه فى أكثره شعر حب، ولكنه لون من الحب لا تشم منه رائحة الجسد، ولا تلمس فيه أثر الجنس فى كيان الشاعر نفسه ولكنك تشم تلك الرائحة وتلمس هذا الأثر فى كيان حبيباته، وفى كيان الآخرين.

فكل حبيبات كامل الشناوى - فى مرآة شعره - خائنات، وكأنه لا يتعلق قلبه إلا بالخائنات، وهو مكتف من الموقف كله بالسخط والغضب والثورة والحرمان والتعذيب.

قصيدة "لا تكذبى" كلها تتحدث إلى الخائنة التى رآها مع واحد من الآخرين، وعيناها فى عينيه وفى شفتيه وفى كفيه وفى قدميه ويداها ضارعتان ترتعشان من لهف عليه، تتحديان الشوق بالقبلات التى تلدغ الشاعر بسوط من لهيب...

وقصيدة " حبيبها " تقول فى مطلعها:

حبيبها لست وحدك

حبيبها، أنا قبلك

وربما جئت بعدك

وربما كنت مثلك

فلم أزل ألقاها

وتستبيح خداعى

بلهفة فى اللقاء

برجفة فى الوداع

إلى أن يقول كامل الشناوى والألم يعتصره:

حبيبها، وروت لى

ما كان منك ومنهم

فهم كثير، ولكن

لا شئ نعرف عنهم

أنها صورة " ممثلة"... قد لا تكون ممثلة على مسرح ولا على شاشة... وقد تكون... ولكنها امرأة تجيد تمثيل دور الحب على أحبائها،

وهم كثير... على حد اعتراف الشاعر... ومع هذا فإنها تستبيح خداعهم، وتحسنه بلهفة فى لقاء كل منهم وبرجفة فى وداعه !.

وقصيدة «قلبى» تقول:

كـــــــيف يا قـلـب تـرتـضى
طـعنـة الغـــــــدر فى الـضـلـوع
وتـدارى جـــــــحــــــودها
فـى رداء مـن الـدمـــــــــوع
لـــــست قـــلـــــبى، وإنمـــا
خـنـجــــــر أنـت فـى الـضـلـوع

ثم يصف هذه "الغادرة" وكيف هوت به خيانتها من القمة إلى السفح قائلا لقلبه:

أو تـــدرى بمـا جــــــــــرى ؟
أو تـدرى دمـى جــــــــــرى ؟
جـــــــــذبـتـنـى مـن الـذرى
ورمـت بـى إلـى الـثـــــــــرى

وبرغم هذا الغدر... وهذه الخيانة وبرغم هذا السخط... وهذه الثورة لا زال قلبه يحبها، لأنه يحب الخائنات:

ويعترف بهذه الحقيقة فى نهاية القصيدة التى يخاطب فيها قلبه:

دمـــــــــــرتـنـى لأنـنـى
كـنـت يـومـــا أحـــبــــهـــا

وإلـــــى الآن لـــــم يـــــزل

نابضـــا فـــيك حـــبـــهـــا

لـــســـت قـــلـــبـــى أنـــا إذن

إنما أنـت قـلـبـــــــــهـــــــا

وحول المحورين نفسيهما - محور الخيانة ومحور الرضا بالخيانة - تدور قصيدة " ظمأ وجوع " فتقول:

أحـبـبـتـهـا وظننت أن لقلبـهـا

نبـضـا كـقلبى لا تقـيـده الضلوع

أحـبـبـتـهـا فـإذا بهـا قلب بلا

نبض، سـراب خـادع، ظمـأ وجـوع

فـتـركـتـهـا، لكن قلبى لم يزل

طفل يعـاوده الحنين إلى الرجـوع

وإذا مـررت، وكم مـررت ببيـتـهـا

تبكى الخطا منى وترتعـد الدمـوع

* * *

كل قصيدة من قصائد الديوان كله، يتصاعد منها بخار الخيانة والغدر...

حتى القصائد الوطنية، يتمثل فيها الشاعر وطنه المصرى، أو وطنه العربى فى الجزائر، أو وطنه الأكبر فى الأمة العربية كلها، حبيبة أثيرة، يفجعه فيها غدر الآخرين الخونة والطامعين والمستعمرين .

يقول فى " نشيد الحرية ":

عــــرضك الغـــالى على الظالم هان
ومــــــشى العــــار إليـــــه وإليك
أرضك الحــــــرة غطاها الهــــوان
وطغى الظلم عليــــــهــــا وعليك
قـــدم الآجـــال قـــربانا لعــــرضك
إجعل العمـر سياجا حول أرضك

* * *

وعاشق الخائنات يواجه هذه الخيانة بالسخط والثورة، يتجليان فى صور شتى، وينتهيان إلى نهايات متباينة وينتهيان أحيانا إلى الاستسلام والرضا بالواقع، أو إلى التنازل عن قضية الحب كله، كقوله فى نهاية قصيدة «لا تكذبى»:

فــأنا صنعــتك من هواى ومن جنونى
وأنا برئت من الهـــوى ومن الجنون

أو إلى ترك النهاية لمشيئة القدر، كقوله فى نهاية قصيدة "قلبى":

وضـــــمــــــيـــــرى يشـــــدنى
لهــــوى مــــاله ضـــمــــيـــــر
وإلـــــى أيـــــن ؟ لا تـــــســـــل
فــــأنـا أجــــهل المصـــيـــــر

* * *

أو إلى التزام الصمت إشفاقا على الكبرياء، فى قصيدة «لست أشكو» إذ يقول:

لست أشكو منك فالشكوى عذاب الأبرياء

وهى قيد ترسف العزة فيه والإباء

أنا لا أشكو ففى الشكوى انحناء

وأنا نبض عروقى كبرياء

وقد يوغل فى الثورة، ويتحول هذا المستسلم الحنون، إلى تيار جارف من القسوة، ويدعو الله أن يعذب حبيبه كما عذبه، وفى نهاية قصيدة «بدرى»:

يارب عذب بالهيام قلبه

وزد على مر الليالى حبه

ولا تفرج بالبكاء كربه

لعله يرحم من أحبه

ويعلق الشاعر صالح جودت على شعر كامل الشناوى فى ديوانه فيقول: ولعل هذه القسوة - التى لا تشيع فى روح الديوان هى الهنة الوحيدة التى آخذها على صاحب هذا الديوان .

ونعود إلى «المقدمة»

ولأن الطبيعى أن نتحدث عن المقدمة فى أول الحديث، لولا أن الشاعر نفسه شاء أن يغالطنا، بأن يقول فى المقدمة أنه ليس متشائما ثم يختتم الديوان بقصيدة «عدت يا يوم مولدى» التى يصل فيها إلى ذروة التشاؤم.

يقول الشاعر فى مقدمة ديوانه:

ولا تتهمنى بالتشاؤم لأن بعض ألفاظى حزينة، وبعض تعبيراتى مقطبة

الجبين... فما دام الموت يتعقب حياتنا، وما دمنا لا نعرف من نحن، فإن المجانين وحدهم هم الذين يضحكون للحياة، ويسمون ذلك تفاؤلا.

«لست متشائما، ولست مجنونا، ولكنى أحاول أن أكون صادقا مع ما أشعر به، وما أفكر فيه».

هذه العبارة تثير أكثر من جانب من جوانب هذا الشاعر، وتأخذك عبارته «أن المجانين وحدهم هم الذين يضحكون للحياة».

والمعروف عن كامل الشناوى أنه من ظرفاء هذا العصر، وأنه يملأ مجالات الحياة حوله ضحكات عالية وفكاهات صارخة، وهذه الحقيقة تأخذ بخناقه إذا طبقنا عليه عبارته هذه، وتضعه فى عداد المجانين.

ولعله يعترف بهذا الجنون فى أكثر من قصيدة، ومنها قوله: فأنا صنعتك من هواى ومن جنونى، ومنها قوله:

يا لهفتى من خاطر
أسود مجنون الخطا
ينسل فى جوارحى
لصا على روحى سطا
جردنى من هدأتى
وشدنى إلى الجنون
حبيبتى أين ؟ ألا
جواب لى إلا الظنون ؟

* * *

ويقول فى قصيدة " يا حيتى"

مـــازال يحـــمل قلبـــه المجنونا
فـاسـقـه من غـصص الخـداع فنونا
صـــبى له الكأس التى مـــا ذاقـــهـا
إلا وجـن مـن العـــــذاب جـنـونـا

أما وقد عرفنا لماذا يملأ كامل الشناوى أجواء حياته الاجتماعية بالضحكات، فليس لنا أن نلوم جنونه، فإنه لا ينفرد وحده بالجنون، لأنه ما من فنان على الأرض خلا من الجنون .

والظاهرة العجيبة فى عالم الأدب عامة، وفى الأدب المصرى خاصة أن أمرح الكتاب والشعراء فى حياتهم الاجتماعية، هم أحزن الكتاب والشعراء إذا كتبوا أو نظموا، وكأن المرح فى كيانهم قشرة ظاهرة بينما الشجى راسب متأصل فى الأعماق، والأمثلة الصادقة لهذه الحقيقة حافظ إبراهيم، وإبراهيم ناجى... وأحمد رامى، وكامل الشناوى .

* * *

ثم خوفه من الموت فى قوله: «فمادمنا نعرف أن الموت يتعقب حياتنا، الخ».

وقد تتناقض هذه العبارة مع ما نلمح فى شعره من قدرية، ولا أدرية كقوله:

إلى أين نمضى أيهـا الدهر بعـد مـا
نصـيـر هبـاء،لا ضـجـيج ولا صـمت
وبنـسل منـا الشـــر والغى والمقت
إلى أين يمـضى شـيـبنا وشـبـابنا

إلى أين يمضى الومض والنبض والصوت

وفى أى قبو منك خبأت من مضوا

وأبعدت مشواهم فراحوا ولم يأتوا

وقوله فى تساؤلاته الفلسفية الحائرة:

يارب فيما خلقتنا وتركتنا

نهب الضباب فلا ظلام ولا سنا

وندب فوق الأرض لا ندرى بها

وندب فوق الأرض لا تدرى بنا

كل هذه "اللا أدريات" التى تذكرنى بلا أدريات إيليا أبى ماضى... وهذه القدريات الساخرة.... مع هذا الإشفاق من الموت.قد يتناقض بعضها مع بعض، إلى أن تجد الجواب فى أول المقدمة:

"لا تحاول أن تنسب هذا الشعر إلى مدرسة فنية بذاتها، كالواقعية والرومانسية والطبيعية، فهو متأثر بهذه المذاهب جميعاً، ولكنه لا يتقيد بمذهب أحد منها".

وهذه هى الأصالة...

الأصالة أمر من اثنين، فإما أن تكون صاحب مذهب، تكون أنت منشئه ومخترعه ورائده، لا تابعاً ولا مريداً ولا مقلدا فيه.

وإما أن يكون مذهبك أن تطلق ينابيع نفسك على سجيتها، دون أن يقيدك مذهب بذاته أو تنميك مدرسة بعينها.

وهذا هو شأن صاحب هذا الديوان.

* * *

وهكذا لم يترك لنا كامل الشناوى من حصاد رحلته الشعرية على مدى أكثر من ثلاثة عقود غير هذا الديوان اليتيم الذى كان على قلة قصائده نموذجاً رائعاً للشعر الوجدانى الصادق الذى يعكس مشاعر قلب عاشق معذب أصلته نيران الغدر والهجر والخيانة، فانطلق يرسل دموع قلبه، وأنات روحه!

كما عبر كامل الشناوى عن مشاعر قلب محب لمصر وللعروبة، عايش مختلف الأحداث والقضايا القومية وعبر عنها بنبض وجدانه فجاءت أناشيد الوطنية والقومية تعبيراً عن مشاعر الجموع، وتجسيداً لآمالها وطموحاتها فى الحرية والكرامة والنضال.

* * *